فن الكاريكاتير بين جُرْأة التّناول ودَوِيّ التّأثير في البيئة الاجتماعية

The art of caricature between boldness of handling and influence in the social environment

أحمد بن عزة [1]، محمد بدير [2]،

[1] كلية الآداب واللغات قسم الفنون ،جامعة أبو بكر بلقايد/تلمسان(الجزائر)، مخبر الفنون والدراسات الثقافية،

ahmed.epst@gmail.com

[2] كلية الآداب واللغات قسم الفنون ،جامعة أبو بكر بلقايد/تلمسان (الجزائر)، aminamino22@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2019/04/22 تاريخ القبول:2021/01/19 تاريخ النشر: مارس/2021

الملخص:

انطلاقا من هذه الدراسة التي تروم حيثياتها في الكشف عن مواطن الاشتغال الكاريكاتوري في المنظومة الثقافية والاتصالية، وبما أن الموضوع بالإجمال مما لا خلاف فيه يستقطب الأنظار ويأسر القلوب، فإن الدراسة لا تتحدث بالأساس عن المقال التقليدي المكتوب بأسلوب خبري تقريري مُمِّل غالبًا، أو موجه لفئة معينة من الجمهور ذات الاختصاص شكلاً ومضموناً، إنما هو حديث بالأساس عن نوع من القراءة البصرية المُحَيّة لقلوب الناس وعقولهم؛ فالكاريكاتير ينتمي لجميع مجالات الدراسة، وهو متاح لمن يريد أن يستخدمه أو ينشره أو يتعلمه، كما تبقى للكاريكاتير السلطة التي يمارسها علينا من مضمونه عندما تُحَرِّف الملامح الطبيعية للإنسان.

الكلمات المفتاحية: فن الكاريكاتير، التأثير، التأثر، الإبداع، الحرية.

Abstract:

From this study, whose purpose is to reveal the workings of the caricatures in the cultural and communicative system, we are not talking mainly about the traditional article, which is written in an often tedious, or often directed, The visual appeal to people's hearts and minds. Caricature belongs to all fields of study, and is available to those who want to use it, publish it or learn it, and the cartoon remains the power exercised by us when it deviates the natural features of man.

Key words: The Art of Caricature, The Influence, Vulnerability, Creativity, Freedom.

المقدمة:

لقد دفعت التطورات الحديثة إلى توسيع دائرة الفن كأداة للحوار والتواصل الحسّي بين المجتمعات منذ القدم إلى يومنا هذا، وكان يصعب أحيانا تفسير تلك الأعمال الفنية للجمهور، وفي ظل التغيرات الحاصلة في المدارس الفنية الحديثة وما صاحبها من ضرورة تسخير الوقت الكافي لتفكيك الرموز والوقت اللازم لإعداد تلك اللوحات، أدى ذلك إلى ظهور فن جديد يختزل المسافات ويشرح الرسالات والمضامين، بشكل من الحرية في التناول والانفلات في الطرح من جهة، ومع التأثير في الانفعالات والأحاسيس من جهة أخرى، فيدغدغ الفنان أحلام الجمهور في حياة أفضل من واقعهم المرير، وهذا ما جعل الفنان يختلف ويتفرد عن مهمة الباحث العلمي، بحكم أنه يعيش شعور دائم مع الجماد والنبات والحيوان، فهدفه تأسيس بعض المفاهيم الفنية وإسهامه في تغيير وبناء ثقافة بصرية جديدة للمجتمع.

إلا أن فن الكاريكاتير يعكس في الكثير من الأحيان واقعا اجتماعيا أو سياسيا ما، بسبب تركيبته التي تجمع بين عنصري الشكل والسخرية، وهو أداة من أدوات الحروب الإعلامية، وأحد الرسوم الهزلية التي لها القدرة على لفت أنظار الجمهور بنكت بصرية، كما يساهم في رفع مستوى الوعي الشعبي، إضافة إلى هاته الأهمية سوف تقدم الدراسة للرسامين الإلهام في مخيلتهم الإبداعية لأجل الاهتمام بهذا النوع من الفنون التشكيلية، بدءا من البحث عن الفكرة وانتهاء باختيار العنوان ومادة الحوار، فيُخرجوا المميز من أعمالهم إلى الوجود، ولجعل المتلقي يدرك بأن الفن بشكل عام يمكنه الانتقال من جدران القصور والمتاحف ذي الطابع التوثيقي، إلى أعمدة الصحافة وغيرها من المواضع.

تسمح لنا هذه الدراسة بمعرفة مضامينه وحدود السخرية وثمن حرية الإبداع حينما تَبْلغ السُخرية أعلى درجاتها أثناء نقد السلبيات أو مدح الإيجابيات، ليستطيع هذا الفن في النشاط السمعي البصري وأي آليات الاتصال البصري الموجه لدى المتلقي، أن يبين مدى أهمية الكاريكاتير في توضيح النسق العام لإحياء الصورة السائدة في الوضع الحالي للمجتمع، هذا من خلال ضرورة التمسك بشعار الحرية والممارسات السياسية التي يعكسها هذا الفن المجتمعاتي إلى حد التعبير.

إنطلاقا لما سبق ذكره، تتحدد معالم الإشكـــالية الرئيسية لتكشف لنا عن جوانب اللوحة الفنية الكاريكـــاتير في صنـــاعة انطباعات أو رأي عام بطريقة ســـاخرة؛ فإلى أي حد قد يصل مصير الفنـــان لنقـد الســلبيات أو لمدح الإيجـــابيـــات؟ وأي دور يلعبه هذا الفن في البيئة الاجتماعية الجـــزائرية على وجه الخصوص؟.

1- تطور فن الكاريكاتير عبر العصور:

يلعب الكاريكاتير دور النكتة المصورة والمجسدة على واقع المجتمع، إضافة لدوره الفكاهي فهو يستخدم كوسيلة لتوعية الرأي العام، أو تعبير عن الثقافة الراهنة وبنية الوعي الميثولوجي لمرحلة من مراحل التطور البشري، وقد وُجِدت رسومات كثيرة في جبال التاسيلي بالجزائر، والتي " تثير الدهشة تلك الرسوم الساخرة المنقوشة على الصخور في صحراء الجزائر، والتي حملت موضوعات جديدة وغير مألوفة كالجنس[1]"، والملاحظ أن فن الكاريكاتور لم يقتصر على حضارة واحجة فقط، بل وجد في كهوف البوشمان بجنوب إفريقيا، وكهوف شمال وجنوب جبال البرانس وكهوف راميجيا بإسبانيا "Caverne De Ramijia" وكهوف كامبرل Cambarelles بمقاطعة دوردون Dordogne بفرنسا، وفي بعض النحوت الآشورية، وبخاصة في صعيد مصر في دير المدينة التي شكلت قبور وبيوت العمال الفراعنة " تحمل جُلّها رسومات يغلب عليها صور الحيوان والصيد، أين يبدو واضحا هذا الفن منقوشا على أدوات خشبية، وعلى الجدران والصخور وعلى الجلود وورق البردي المحفوظ بعضها في بعض المتاحف العالمية بفرنسا وإنجلترا وأمريكا"[2]، والتي تمثل تلك التناقضات والسيناريوهات التخيلية التي نشأت منها فكرة الكوميديا، أو السخرية بهذا النوع من الفن، وأخرى كتلك 'البردية' المحفوظة في متحف بريطانيا، التي صوّرت أسدًا يلعب لعبة لوحية تشبه الشطرنج مع غزال بري.

لا يمكن في الحقيقة اعتبار هذه الارهاصات الأولى كاريكاتور بالمعنى الاصطلاحي الأدق، إذ أن أصول كلمة كاريكاتير وترجمته في سياق الممارسة، تأتي فيما :"يعتقد الكاريكاتوري' بولندي ينسي' أنّ دخول الكاريكاتير ميدان الممارسة كان في إيطاليا عام 1480، وهو نفسه ما يؤكده الكاريكاتوري الإنجليزي 'رولاند سيرل ،Roland Searle '، الذي يذكر أن الفضل في جعل الكاريكاتير يحتل مرتبة مهمة بعد ذلك الظهور ويحتلها في وقتنا الحاضر إلى الأخوين 'Augustin أوغوستان كاراش و Annie Bal آني بال'، إذ أسسا مدرسة تطوير الفنون الجميلة في بولونيا، والتي تعتبر مهد تطور فن الكاريكاتير، فأصبح يدرس على قواعد دقيقة، بجانب النحات الإيطالي 'جيان برنيني'، الذي اشتهر أيضًا بصنع تماثيل لنفسه ولأصدقائه مبالغ في قياساتها بغرض السخرية"[3].

وعليه، أتت كلمة كاريكاتير من المصطلح الإيطالي Carico أو Caricare والتي تعنى «التحميل الزائد» أو «المبالغة»، والثابت في مجمل القول ما قاله Jacques Lethève جاك لتيف، عن ظهور هذا النوع من الفن بأنه " يخضع لتاريخ معقد كون الكاريكاتير يتعلق بالجمال، ولأن أكبر التيارات الفنية العالمية شهدت تطور الرسم الساخر Le Dessin Satirique، لذلك فهو يتعلق أيضا بتاريخ العادات والأخلاق، لأن هذا الرسم يزين هاته الأخيرة ويقدمها بشيء من الطرافة، أو ينقلها حسب النظرة التشويهية للفنان[4]".

أما في الدول العربية فنشأته كانت متأخرة بدءا من نظرة علماء الإسلام حول جوازه أو تحريمه بسبب قضية التصوير وذوات الأرواح، وفي نفس الوقت بعدم جواز السخرية من الآخرين، وفي العصر الحديث يرجع إلى أن جُلّ الدول العربية والإسلامية كانت خاضعة للاستعمار والاحتلال، إضافة إلى عدم وجود فنانين مختصين، وعدم اهتمام الفنان العربي بمثل هذا النوع من الفنون، بالإضافة إلى أمر آخر في غاية الأهمية، وهو الحضر المفروض على حرية التعبير والسلطة القمعية لبعض الدول العربية الممارسة ضد شعوبها، إذا فليس غريبا إن لم يصلنا سوى اسم واحد من المصورين وهو كتاب "ضوء النبراس وانس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس، الذي ذكره المقريزي في خططه، وحتى وإن وجدوا من المصورين العرب، فلم يبذلوا جهدا لإبراز أعمالهم ولم يوقعوا أسمائهم على الأعمال التي رسموها، بقدر تركيزهم على الرسوم لا على الأسماء، وتلك ميزة 'المنفعة' التي تميز بها الفن الإسلامي، أما ماُ وجِدَ وَما وَصَلَنا من موضوعات دينية كصور الأنبياء وبعض الأحداث الدينية كقصة فداء النبي إبراهيم بالكبش العظيم وقصة المعراج وغيرها، إنما كانت من رسم فنانين مسلمين غير عرب"[5].

من أشهر الأمثلة المبكّرة تاريخيًا عن الصورة الكاريكاتيرية، كانت للرسام البريطاني 'جيمس جيلاري'، الذي اشتهر بتصويره الساخر للإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت في أواخر القرن الثامن عشر، والذي اعتاد «جيلاري» تصويره شخصًا قصيرًا متعجرفًا بقّبعةٍ كبيرة مضحكة (أنظر شكل 01)، "وكل ما سبق ذكره لا يعتبر كاريكاتيرا بالمعنى المتعارف عليه في عصرنا الراهن، فقد بقي فن الكاريكاتير قبل عصر النهضة، خارج إطار الفنون الرفيعة إن صح التعبير ولم يكن ينظر النظرة الجدية من قبل الفنانين، وبقي في إطار الدعابة والهجاء إلا أن عناصر المبالغة الساخرة أخذت تظهر في أعمال فنانين كلبنات أولى لفن الكاريكاتير"[6].

هكذا تطور فن الكاريكاتير وظهرت عدة مدارس فنية أهمها المدرسة الأوروبية الشرقية التي اعتمدت على الرسم فقط من دون الاعتماد على تعليق مصاحب له، فحين كانت المدرسة الأوروبية الغربية تعتمد على الرسم التخطيطي البسيط مع تعليق مصاحب له على شكل نكتة، أما المدرسة الأمريكية فقد امتازت بالجمع بين المدرستين، أين احتوى الرسم الكاريكاتيري على مضامين ودلالات تتضح أكثر بالحوار، فاعتمد الرسامون على طريقة جديدة في استخدام التعليق الساخر" وهي وضعه في بالون متصل بفم الشخصية وهذه الطريقة وضعت التعليق في صلب الرسم وجزء منه، وبذلك تشد المتلقي إلى الرسم بدلا من انشغاله بالتعليق المنفصل عنه والموضوع أسفله"[7]، وانتشر استخدمها في أنحاء العالم.

أما في العالم العربي، وزيادة إلى هذه الميزات عن اللغة الحوارية " فقد اعتمدوا على اللهجة العامية والدارجة المبسطة، وتركيزه على القضايا المحلية ومخاطبة الناس بما يفهمونه دون مبالغة أو غموض، لأن اللهجة العامية هي التي يفهمها جميع الناس"[8].

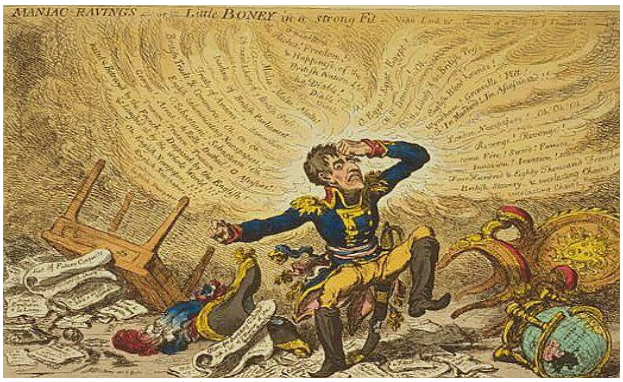

يمثل الشكل01 كرتون لجيمس جيلاري وهو يصوّر نابليون بونابارت غاضبًا بسبب العلاقات الفرنسية الإنجليزية.
المصدر:
www.sasapost.com/political-cartoons

2- الاشتغال على فن الكاريكاتير وآلية تجسيد العملية الإبداعية:

يكتسي الكاريكاتير أهمية بالغة من خلال معرفته بمكنونات ما يدور في المجتمع، وإبراز المعرفة ضمن ما هو تشكيلي، نحو محتوى فكري من خلال قدرته على عكس هذا الواقع بأسلوب تهكمي على مواقع التواصل الاجتماعي، والصحف التي أخرجته من حدود المعارض الفنية إلى عامة الناس، فتمثلات الكاريكاتير جاءت على حسب الترتيب الكرونولوجي وتطور وسائل الإعلام أيضا، فلا شك أن أكثر رسامي الكاريكاتير في العالم قد تطرقوا بشكل أو بآخر لرسم البورتريه الكاريكاتيري، والكثيرون قد برعوا في ذلك، إذ لم تكن الغاية هي العدوانية أو التشهير بالآخر أو إبراز عيوبه، بل هو حالة مقاومة ضد خطر خارجي أو داخلي ونزوع إلى الحرية، دون الخروج عن الآداب العامة للمجتمع، ونذكر من هؤلاء الفنان البرازيلي 'لوريدانو' والنمساوي 'كولومان سوكول' و'حسن أدلبي'، والمصري 'يعقوب صنوع'، والسوري توفيق طارق، واللبناني خليل الأشقر، والفلسطيني ناجي العلي، والجزائري الفنان محمد اسياخم وأحمد هارون، وغيرهم من اللذين وصلوا بهذا النوع إلى حد العبقرية، كما قل تداول هذا الفن في الكتب، بسبب تفادي إعادة نشرهم للكاريكاتير نفسه في عدة صحف.

أما الكاريكاتير التلفزيوني فعمره سنوات، رغم بعض المحاولات الخجولة التي اقتصرت على كونها مقدمات برامج فكاهية كالمسرحيات أو ما شابه ذلك كبرنامج الرياضي' فريق الأحد l'équipe du dimanche ' بفرنسا، وفي العالم العربي كان' بيار صادق' أول من نفّذ الكاريكاتور السياسّي المتحّرك يوميًا على شاشة التلفزيون اللبناني، وتجربة الفنان 'عصام شميساني' مع الأمثال الشعبية في فن الكاريكاتير، وفي سوريا خالد جلل وعبد الهادي الشماع*.

أما في السنوات الأخيرة بدأنا نلاحظ ظاهرة الكمبيوكاتور قد بدأت تتسلل إلى رسوم عدة فنانين عالميين وهم قلّة وعند العرب في تزايد، لاختصار الوقت خصوصا إذا كان الرسم ملون ويتطلب رسمه يوميا، وهي فائدة في مصلحة الرسام قد غابت عند القارئ الذي خَسِر المتعة الجمالية المُعتاد عليها في

ضربات الفرشاة، فاصطدم برسوم بلاستيكية جامدة، ومن الرسامين الذين استفادوا من هاته التقنية العراقي 'هاني مظهر'، ومن الأردن 'حجاج ورسمي'، ومن الجزائر 'رشيد آيت قاسي' الكاريكاتير، راوياً من خلال رسوماته الكاريكاتيرية قصص بألوان ساخرة في خدمة مجتمعه.

وعليه، يستطيع المتلقي لصور فنية والقارئ لكتب أو مقال صحفي أن يتذوق مضمون الكاريكاتير السياسي الذي يعتمد على المبالغة في التعبير عن القضايا الراهنة والدعوة إلى التغيير، والاجتماعي ذي الصبغة الأخلاقية كالزواج والتشرد ونظافة المحيط، والثقافي الذي يتناول القرارات المتعلقة بالمشهد الثقافي كالعولمة وصراع الحضارات والمواضيع الفنية كالمسرح والسينما وغيره من الأنواع، حيث يوظف الفنان العبارات الساخرة بالأسلوب الهزلي، وإثارة حواسه وإسباغ لروح الطرافة بالأشكال والخطوط والألوان، لترتسم في ذهن المتلقي صورة واضحة عن الموضوع والرسالة التي توجه إليه من هذا الفن الإبداعي، وحتى لا تَمَلّ النفس العادية من مُشاهدة الصور وإعادة مشاهدتها، فيتذوق ويستمتع بأدائها الفني الزائد. فرولان بارت يُصِرّ على أن "الصور ليست هي الأشياء التي تمثلها، وإنما استعملت لتقول أشياء أخرى"[9]، لذلك يستوجب تحليلها لمعرفة معانيها وإدراك الرسالة البصرية، كما أن إدخال الرموز في اللوحة الكاريكاتيرية يتطلب تواجد نظام ثقافي خاص في ذلك المجتمع حتى تصبح لها أبعاد محل فهمها، وجملة من الدلائل تستطيع أن تولده تلك المعاني أثناء عملية التأويل، باعتبار أن "الدلائل الرمزية تعني مجمل العناصر والمركبات من أشكال ورموز وصيغ وسيم وإشارات وعلامات التي تتكّلف بإرساء المعنى الذي تأتي من أجله الرسالة الكاريكاتورية"[10].

يعتبر الكاريكاتور أحد أشكال الاتصال بين الفنان والجمهور، ولهذا عّبر العالم النفساني فرويد من وراء هذا البعد النفسي لكاريكاتير النكت والتي تصبح أيقونة نعّبر عنها بالرسم التصويري، قائلاً: " عندما لا تكون النكتة غاية في ذاتها، أي عندما لا تكون نكتة بريئة، يكون هناك غرضان أساسيان تعمل النكت على إشباعهما أو الوفاء بهما، وهما:

1) النكتة العدائية: وتخدم أغراض التعبير عن العدوان، والسخرية، والدفاع عن النفس، ومهاجمة الآخرين.

2) النكتة الجنسية: وتخدم الأغراض الخاصة بالاستعراض أو الكشف عن الميول الجنسية، وما يرتبط به، كذلك من مشاعر الخجل أو الذنب، وكل ما هو فاحش وخارج، أو مقرف، بالمعنى الشامل لهذه الكلمة[11]".

وهذا جانب مهم يحيلنا إلى الكشف عن فهم تداعيات الريشة الساخرة والتي تكون أكثر صخبا وجرأةً في تداول صور خارجة عن حدود المألوف، لكنها مطلوبة كالتي يملكها أبرز رموز القضية الفلسطينية 'ناجي العلي'، رسّام كاريكاتيري، الذي دفعته رسوماته الساخرة لموقف العرب من القضية الفلسطينية والعدائية لإسرائيل، إلى حدّ الاغتيال، والذي شكّل فكراً نضالياً وانحيازه إلى الكادحين، فمن خلال استقراء

إنتاجه الفكري، يقول ناجي: "أنا ضد التسوية، ولكن مع السلام، وأنا مع تحرير فلسطين...، أنا لا أغالط روحي، ولا أتملّق أحداً، القضية واضحة، ولا تتحمل الاجتهاد، الفقراء هم الذين يموتون، وهم الذين يُسجنون، وهم الذين يُعانون المعاناة الحقيقية [12]"، ويضيف الدكتور 'عبد الرحمان' عنه قائلا: " إن فنه أداة تراقب، وتدافع، وتعبئ، وتنتقد، وتعّري، وتفضح، فهولا يهمه أن يحمل رسوماته من يسعون إلى الضحك، ومن تهتز كروشهم صخباً، بل يهمه أن يعيشها الإنسان العادي، الأُميوالمثقّف، أن تصل الفكرة بكل أبعادها وصدقها وعفويتها، وربما تأخذشكلاً تحريضياً حيناً،وشكلاً ثورياً حيناً آخر[13]".

وقد عرف لدى الوسط العام برسم 'المرأة فاطمة' لأنه يعلم معنى حضور المرأة إلى جانب الرجل في المعركة، وعلى رسومات "الطفل حنّظله روى الروايات وأوقد نيران التغيير بتحريك حضور كشاهد أو مشارك بالحدث والمعرض عما يدور حوله تعبيراً عن الرفض والاستياء من الحدث داخل كادر اللوحة، فلا تقف رموز ناجي العلي عند حدود الأداة، بل تتجاوزها لتصل إلى قلب الهدف وتختصر ذروة المعاناة، مخاطباً العقل والعاطفة، فبالرمز يغوص في العمق لاستشراف الحقيقة عند تخوم الأزمنة، المغلقة والمفتوحة على السواء"[14].

3- الممارسة الفنية للفكر الكاريكاتوري في الجزائر:

تعد الفنون بشكل عام تراثا وحضارة ومن خلالها نستطيع بث رسائل لتوعية وتثقيف الشعوب إلى المتلقي، كما يمكن أن تكون هدر قيم وأخلاق مجتمع، والكاريكاتير بإنتمائه للفنون التشكيلية، لا بد من أن يؤدي وظيفته الجمالية والتربوية، وبهذا يكون قد حقق حلقة الوصل بين الفنون التشكيلية والجمهور المتلقي من القراء، فقد وجد أصلا من أجل الشعب ليكون لهم وليس عليهم، والمتنفس الوحيد في رفع خطابات رمزية، يرسمها الفنان لتعبر عن آرائهم حول التقبل أو المعارضة، كما نلاحظ أن هذه الممارسات، انتشرت بكثرة في الدول التي عايشت حالة الاحتلال الغربي والتقلبات السياسية، فهو صور من الخطاب الشعبي التي تبعث رسوم مفهومة لعامة الناس وكل أصناف البشرية، ويتعلق بتشارك الطريقة التي نختبر فيها العالم، الأمر الذي يعتبره الكثيرون امتدادا وبمثابة التواصل بمفاهيم حميمة جدًا لا يمكن للكتابة وحدها التعبير عنها بإخلاص، ليصبح إحدى ملامح الديمقراطية التي تنطق بها أمم مختلفة الأعراق والجنسيات "وقد تجد الكثيرون ممن يذمون هذا النوع من الفن ويعتبرونه مجرد فوضى وسخرية وإثارة للقلائل السوسيو سياسية، خاصة عندما يكون الأمر متعلق بالمقدسات، وهو الأمر الذي يقاس على قضية الرسوم المسيئة إلى الرسول الكريم، لذلك يعتبره ممارسيه ومتتبعيه، رسالة وأمانة لا ينبغي المتاجرة بها، وبيع للذّمة في سبيل مصلحة خاصة، إنما على جميع الأطراف الارتقاء به وجعله مستقلا عن أي نوع من الصراع، هدفه كشف الواقع بحذافيره من دون زيادة أو نقصان، لأنه في حال ما إذا حصل ذلك، كان انتهاكًا في حق هذا النوع من الفنون"[15].

يتميز الكاريكاتير ببعض الخصائص التي تمكنه من تناول بعض المواضيع التي يتجنبها أحيانا الكاتب، فيكشف لنا الكاريكاتير عن جوهر الشخصية اللعوب وعيوبها " ومن ثم يكشف ذلك الشر الكامن وراء هذا التظاهر بالخير، والجشع المتسربل بقناع الزهد، والمصلحة الخاصة التي تتكالب وراء ادعاء المصلحة العامة، فبلمسة هنا، ولمسة هناك يعطينا فنان الكاريكاتير البارع جوهر هذه الشخصية، ويكشفها أمامنا على نحو ضاحك[16]". وفي الجزائر لم يسلم من ريشة الفنان جنرالات الجيش، والشخصيات العامة بكل أطيافها من خلال طرحه ونقده العديد من القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، وقادة الجماعات الإرهابية ومسايرة الأحداث الراهنة، لتصل بشكل خاص إلى رؤساء البرلمان المتعاقبين وحتى رئيس الجمهورية، وتناوله للواقع بنظرة نقدية تحمل الكثير من السخرية حيال ما يجري من حولنا، من ظواهر ومشاكل ومشاهد شغلت الرأي العـــام في الداخل والخـــارج على حد سواء، كما تناول قضايا كانت سابقا طابوهات وأخرى تعتبر حساسة مثل جسد المرأة والخدمات الصحية والتعليم والصفقات العمــومية والمبـادلات التجارية والفساد في المؤسســات الحكــومية وغيرها، لاختبار المدى الذي يمكن أن تصل إليه حرية التعبير.

يمارس الفن سلطته من الداخل ويسقطها على عيوننا من الخارج فنتبصر المرئي واللامرئي "وعندئذ قد يتجلى في جوهر الفعل الفني وتلقيه في آن سطوة الوازع الديني وفصاحة الأخلاقي وفتنة السياسي والاجتماعي وإغراءات الاقتصادي والسياسي وغيرها، في غير انفصام بين الأنا والنحن، ما يجعل من التباين والاختلاف صورة للتمرد، ومن بعد، لفهمنا النحن واستيعابنا لهذا الطور الطليعي والمتجاوز في أشكال الفن[17]". هي إذن لوحات فنية تعبيرية لأزمات وظروف معقدة يفرضها الواقع على الرسام الكاريكاتيري ويمكن القول: "صار للغة الفنون البصرية إرثا متعلقا مع لغات الشعر والسينما والرواية والمسرح، لم يزل ينبض بما يمكن أخذه أو انتحاله من هذا الإرث، ويعني هذا أن تتبادل السلطات مواقعها ما بين لغة وأخرى، ما خلق للشكل في الفنون البصرية فرص التمدد إلى خارج حدود النمطي والمألوف[18]". (أنظر الشكل 02).

لايخلو المجتمع الجزائري كباقي المجتمعات الأخرى من مآس ونكبات وأوبئة وأمراض، وأحداث غلب عليها الحزن حتى في النكت واتصفت بالمكبوت والسخرية المريرة، واكبت محطات مختلفة من الانفراج السياسي والتعددية الحزبية والعشرية السوداء إلى الربيع العربي والحراك الشعبي، فتداخل الواقع مع الخيال لتجسد لنا في صيغة صور ساخرة لمعاناة وآفات المجتمعات المعاصرة والعربية منها على وجه الخصوص في المجلات وعلى أغلفة الكتب وفي أعمدة الصحافة، مثل رسومات الفنان 'علي فرزات' المناهض للرئيس بشار الأسد، والذي ازداد إبداعا بعدما كُسِرت أصابعه على أيدي قوات النظام السوري، ومع رحاب الإنترنت الذي وفر نطاقا آمنا وفعالاً للتعبير عن الرأي والرأي الآخر، لتظهر عندئذ " وظيفة

الكاريكاتير كفن تحريضي دعائي قائم على وجود مرسل ومستقبل للرسم، ومن ثم قيام فاعليات إنسانية بسبب الفكرة التي يطرحها الرسم، وهكذانترى أن الكاريكاتير يلعب دوراً أساسيا في تناول الموضوعات السياسية أو الدفاع عن حقوق الإنسان وغيرها"[19]، وهذا بدوره يفتح آفاقا جديدة للمستقبل والواقع إما لمحاولة التغيير أو محاولة الصنع الجديد للواقع على أسس اجتماعية وإنسانية جديدة.

الفن في الجزائر علاقة مولودة مع الإنسان، وفن الكاريكاتير يمثله في مجمل معايشته اليومية مع الكثير من القضايا التي تحكم بنيته وما تسعى إليه من تواصل وارتقاء ضمن الصبغة الإنسانية، تلخص الواقع باختزال الكلام واحترافية في القراءة ما بين الخطوط،" ففي عهد الرئيس هواري بومدين، كانت وزارة الإعلام تتولى حجب المعلومات ووضع المحظورات، ثم جاء الرئيس الشاذلي بن جديد الذي أعطى الصحافة مساحة معتبرة من الحرية التامة، فظهر فيها رسامون كثر لتشمل إسياخم وآخرين، إلى أن جاء من يعتبر أبا الكاريكاتير بعد الاستقلال، 'سليم' الذي أطلّ على الجمهور الجزائري من خلال جريدة 'أحداث الجزائر'، الناطقة بالفرنسية والمجلة الساخرة 'مقيدش'، ومجلة 'المنشار'، ثم برز آخرون مثل 'هارون'، 'ملواح قاسي' و'بوعمامة مازاري'، و'جمال نون' و'هشام بابا علي""[20]. وتضيف الصحافية 'فرح سوامس' أنّه في مايو 2001، تبنى البرلمان الجزائري مادة والتي يمكن بموجبها الحصول على عقوبة تراوح بين شهرين و12 شهراً، وغرامة مالية من 50.000 إلى 250.000 دينار جزائري بتهمة إهانة الرئيس، كما يمكن أن ينال المساس بسمعة الجيش الوطني أو البرلمان العقوبة نفسها بل تطال الناشر*.

ولذا يتحكم الكاريكاتير في الموضوعات والأفكار التي يعالجها للجواب على إشكالية، بإيقاعات تهكمية وجادة أحيانا أخرى " إنه يشوه نماذجه على نحو ما كأن يمكن أن تتشوه من تلقاء ذاتها لو ذهبت بتجعدها إلى أقصاه، وهو يستشف فيما وراء انسجام الصورة الظاهري، عصيان المادة العميق، فيرسم لنا تنافرًا وتشوها موجودين في الطبيعة"[21]، ويعمل أكثر رسامي الكاريكاتير في العالم إلى التمييز بتواقيع لافتة من حيث الشكل والمضمون، فيلعبون بالحروف أو يضيفون أشكالا أخرى إلى تواقيعهم لخلق خاصية تحول إلى عنصر جاذبية، فكما يحمل الرسم الكاريكاتيري مضمونا لا مرئيا، فإنه من الممكن أن يفكك التوقيع، فهناك من فضلوا كتابة أسمائهم بالعربي أو بالأحرف اللاتينية من دون أي إضافة أو تنويع، وأحيانا أخرى تظهر تواقيع مبهمة أو متشابكة بحيث يستحيل قراءتها أو فهمها، ليتحول إلى مجرد شكل فينقطع الاتصال بالمتلقي الذي يفضل بناء علاقة مع الاسم، وأن يعرف صورة الفنان الذي يقف وراء الرسم، وهو ما تشير إليه الدكتورة 'عمارة كحلي' بالقول أن " عناوين لوحات الفنانين تحمل إيقاعا لا يلبث أن يحيلنا إلى كينونة شعرية لا تنتهي إلى حدود التماثل ولا يُدرِكُ فحواه، إلا في صلة الفنان باللوحة أو ضمن شبكة من الدوال، لا نتمكّن من أن نُدرِك جماليًا عنوان اللوحة إلا بالرمز، وحتى فعل التوقيع والرسم المميز بالرمز عند بعض الفنانين، يشير ضمنيًا إلى أن الفنان لا يرغب إطلاقًا في الانفصال عن

كينونته، بل يتستّر وراء اسمه على سبيل التوكيد غير المشروط لذاته الموجودة في كل مكان من اللوحة، وليس حصرًا في هذا الهامش المنزوي منها"[22].

الشكل 02 يمثل دور الممارسة السياسية في الجزائر في ظل التطورات الراهنة التي تمر بها البلاد.

المصدر:
http://elraaed.com/ara/caricatures/9925
كاريكاتير-عدد-1507-يوم-16-مارس-2017-6

الخاتمة:

إن التحليق في رؤى الآخر وتمثيل الواقع والحقيقة بهذا النوع من الفنّ، يشجع على ممارسته وتشجيع وجوده وتأصيله في المحافل ومواصلة اكتشاف عوالمه، فهو شرط أساسي في الفعل الفني، بل يمكن القول باستطاعة رسام الكاريكاتير أن يحمل رسومه بالرسائل الإعلامية الواضحة ليوصلها إلى القارئ العربي باسطاً أمامه الأفكار والرؤى، وتاركاً له بناء التصورات حول هذه الأحداث السياسية والأزمات العالمية، ومن ثم مطالباً إياه باتخاذ موقف إزاءها، ولعل هذا هو الدور التثقيفي والتعبوي الذي يسعى إلى تحقيقه رسام الكاريكاتير.

واعتبارا لذلك، فان الفنّ أشبه بالنكتة البصرية لكن يجب ربطه دائمًا بالواقع، والنظر إليه على أنه ممارسة خطرة يقوم من خلالها الفنان بالنقد الاجتماعي، أو التحريف للشكل الظاهري للإنسان، قد عمل على إعاقة تطوره إن خرج عن حدود حرية الرأي والتعبير، فينحدر إلى مستوى النواهي الأخلاقية أو التعدي على الثوابت التقليدية المحافظة للمجتمعات، فقط خِدمةً لمصالح وأجّندة حاقدة بأسلوب ساخر.

يتفق معظم فناني ومؤرخي الفن الكاريكاتوري والأضحاك على أنّ نمط الرسوم الهزّلية يحتاج من جهة إلى مسايرة أسلوب حياة المعيشة ومن جهة ثانية إلى جمهور متحضّر على درجة من الثقافة، كي يتمكن معها الامساك بغرائب ومبالغات الحياة الكاريكاتورية، بمعنى أن الخطاب الكاريكاتوري في شكله البصري أو الكلامي يحتاج إلى خليط يجمع بين هذا وذاك، خليط فرض نفسه بكل حدّة عبر وسائل

الإعلام والاتصال بما فيها الصحافة، باعتبارها مسرحا رسميا لفن الكاريكاتير، إذ لم يعد محتكرا على الصفحة الأخيرة من الصحيفة أو العمود الصحفي، وإنما أخذ نصيبه من الأنترنت تحت مسميات كالكوميكس وكقاعدة قانونية معروفة، وفي هدا ما يؤكد عليه الفنان التشكيلي إيدكوهن Ed Cohen في قوله موضحا: "إذا كان عمود التحرير يمثل أرض المدينة الفاضلة، فإن العمود الهزلي يمثل عاصمة تلك المدينة"[23]، كما توسع انتشاره من واقع التواصل الاجتماعي وغيرها من وسائل الميديا.

حملت الألفية الثالثة من خلال وسائل الإعلام على عاتقها، زيادة انتشار هذا النوع من الفنون لتسهيل الاتصال بين الجماعات المختلفة وتذليل العقبات والحصار الذي كان مفروضا على ممارسيه وهواته، أين بات لرسامي الكاريكاتير صفحات وحسابات ينشرون فيها نتاجهم الفني لتغطية التجربة الهزلية عن الانسانية ونشرها على نطاق أوسع بكامل اتجاهاتها المختلفة وتنوع قوالبها، فلا يمكننا أن نتغاضى عن الدور الفعال الذي لعبه ولازال يلعبه الكاريكاتور في تكريس وتأكيد التعددية وترسيخ عقيدة الديمقراطية وحرية التعبير في الممارسة الفكرية والإعلامية والسلوكية، ولا شك أن آفاق فن الكاريكاتير بأسلوبه الخاص المتمثل في تشويه الحقائق لأجل تنوير الحقائق، يعد بمثابة المصدر الأول والنهائي لهذه الدّعامات من مجلات وصفحات وملصقات وغيرها من الدعائم، الأكثر إحساسًا وتأثيرًا في الوجدان البشري، إذ يبقى الكاريكاتير الأصيل مقارنة بأشكاله المعاصرة كمواقع التواصل الاجتماعي، الأكثر عمقاً في الطرح والأكثر تأويلا وتفسيرا للمعنى.

يبقى عنصر البنية المتكاملة للشكل والمحتوى، هي الكفّة التي تبرز فعاليته وتبرز سّر نجاحه، فالذي تغير أو سيتغير هي الأداة المستخدمة، لكن الثابت في الطرح أنه سيغدو أداة للتوعية والتثقيف وكشف الملامح الآنية لسلوك الفرد، وآلية من الآليات الإعلامية للنقد الاجتماعي، الذي يترقبه المتلقي ويتطلع إليه بشغف بالوصف والتفسير من خلال تلك الصور الهزلية واستشراف الظواهر الاجتماعية بطريقة تجريدية ظريفة، كما أن علماء النفس اتخذوا منه وسيلة من وسائل دراسة الشعوب ومعرفة النزعات المكبوتة في نفوس أهلها والتنبؤ بالسلوك والأفكار السائدة لديها، نظرا لكون هذه المجتمعات مؤلفة من عقول محّضة قد لا تبكي أبدا ولكنها تظلّ تضحك، وما أكثر التجارب الانسانية التي تصمد لهذا الامتحان، وقد تكون دائرة الآفاق التي يجول فيها فن الكاريكاتور واسعة، إلا أنه حيثما تظهر مشكلات العصر بين المعنى والدلالة وحيثما تتجلّى في الفنون عمليات التحول والغموض، تبرز بصدق وأمانة شجاعة الريشة الكاريكاتورية، التي لا تنافق ولا تخشى غضب الحاكم، إلى ما وراء السطح الظاهر وجوهر الواقع إلى جرأة في التداول ودوي في التأثير.

الهوامش

1_ شادي عبد الرحمان، الأبعاد الرمزية للصورة الكاريكاتورية في الصحافة الوطنية، رسالة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2001، ص18-19.

2_عبد الحليم حمود، الكاريكاتور العربي و العالمي، دار الأنوار بيروت لبنان، ط1، 2004، ص 10.

3_ Roland Searl : Le Caricature Art Et Manifeste, Paris 1974, P. 25

4_ Jacques Lethéve : La Caricature Et La Presse Sous La IIIe République, -France 1961, P06.

5_ شادي عبد الرحمان، الأبعاد الرمزية للصورة الكاريكاتورية في الصحافة الوطنية، المرجع السابق، ص25.

6_ ممدوح حمادة، فن الكاريكاتير، من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، دار عشتروت للنشر، د.ط، دمشق، 1999، ص57.

7_ عبد الكريم سعدون، ملاحظات في طبيعة الرسم الكاريكاتيري ، مجلة تموز، ،عدد54، إصدار الجمعية الثقافية العراقية في مالمو،2012، ص13.

8_ محمد فريد عزت، وسائل الإعلام السعودية والعالمية النشأة والتطور، دار الشروق للنشر والطباعة، ط1، جدة، 1990، ص267.

*_ والجزائر أيضا كانت لها تجربة في السياق ذاته، الأمر الذي مكن الكاريكاتور التلفزيوني من الصمود وبناء قاعدة شعبية متينة ووجود أطراف ترفضه وأخرى تتحفظ عليه، إلا أن هناك جهات أخرى ترحب به ليقينها بأهميته ودوره في إحداث التغيير والتعبير عن مشاكل الشارع.

9_Martine Joly :Introduction à L'analyse De L'image, Nathan Université, France 1994, P 71.

10_ شادي عبد الرحمان، الأبعاد الرمزية للصورة الكاريكاتورية في الصحافة الوطنية، المرجع السابق، ص15.

11_ شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، مطابع السياسة، د.ط، الكويت، 2003، ص136.

12_ عبد الرحمان علال ، ناجي العلي ...رسام حدّ الاغتيال، مجلة المستقبل العربي -مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 38، بيروت،2015، ص135.

13_ المرجع نفسه، ص 137.

14_ خالد محمد الفقيه، التنمية السياسية على حركة الوعي في كاريكاتير الفنان ناجي العلي، مذكرة ماجستير جامعة النجاح الوطنية نابلس فلسطين، 2008، ص41.

15_ بلحاج حسنية، الخطاب السياسي في كاريكاتور أيوب بجريدة الخبر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، المجلد8، العدد1، جامعة معسكر، الجزائر، 2013، ص 55.

16_ شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، المرجع السابق، ص95

17_ مصطفى عيسى، الفن والسلطة، وزارة الثقافة والفنون، ط،1 دولة قطر، 2010، ص6.

18_ المرجع نفسه، ص7.

19_ حمدان خضر سالم، الاتجاهات السياسية للكاريكاتير في جريدة الشرق الأوسط، مجلة الباحث الإعلامي، العدد 04، بغداد، 2008، ص69.

20_ فرح سوامس،ما هي المواضيع التي يتجنبها الكتّاب ويطرحها الكاريكاتير الجزائري؟، مقال منشور في موقع رصيف 22، ركن ثقافة في 02.10.2016، ، تاريخ الولوج للموقع 2018/06/14، عنوان الموقع:

https://raseef22.com/culture/2016/10/02/ما-هي-المواضيع-التي-يتجنبها-الكتّاب-وي/

*_ من بين أنواع الكاريكاتير نجد الكاريكاتير السياسي، وهو الذي يبرز أي نقطة ضعف للنظام ويوجه نقد لأي أعمال مقبولة للحكومة ويضغط في إتجاه التغييرات المطلوبة. ينظر: رانيا صالح، الكاريكاتير السياسي، مكتبة جزيرة الورد، 2014، ص09.

21_ هنري برجسون، بحث في دلالة المضحك، ترجمة: سامي الدروبى وعبدا لله عبد الدايم، دار العلم للملايين، د.ط، بيروت، د.ت، ص 32.

22- عمارة كحلي، الموضوع الجمالي في ضوء المنهج الفينومينولوجي: مقاربة جمالية في نماذج تجريدية عند الفنان محمد خدة، رسالة دكتوراه في نظرية الأدب، جامعة وهران، 2009/2008، ص 132 و 299 بالتصرف.

23- ملفن هيلترز، أسرار كتابة الكوميديا، ترجمة صبري محمد حسن، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص 433.